متى ٦، ١٤-٢١

٣ أحد مرفع الجبن

الفردوس المفقود والمنشود

"أيّها التائقون إلى سكنى الفردوس والراغبون في معاينة الله هلمّوا نصوم الأربع عشرات..." (إينوس سحر الأحد)

لعلّ من أهمّ المواضيع التي تملأ تسابيحنا الكنسيّة، وخاصّة اليوم، هو موضوع فقدان الفردوس الأوّل، والشوق والمحاولة للعودة إليه، أو بالأحرى محاولة إعادته إلى حياة الإنسان.

ما هو الفردوس بالنهاية؟ كيف طُردنا منه؟ وكيف نعود إليه؟ هذه هي الأسئلة الأساسيّة. وأخيراً ما ارتباط كلّ ذلك باليوم الأحد الذي على عتبة الصيام، الذي نسمّيه أحد الغفران؟

يصوّر الكتاب المقدّس الفردوس بالصور المثاليّة لعالم ما بين النهرين، بالخصب والجمال والسعادة المطلقة! هذه كلّها صورٌ مستعارة من أديان ذلك الزمان، لكنّها مطّهرة من عبادة الوثن ومعطاة فحوى الإيمان الكتابيّ الجديد. بكلّ ذلك يريد الكتاب أن يعبّر أنّ الحياة في الفردوس كانت بملئها.

وما يميّز الحياة الفردوسيّة كان أوّلاً الإلفة مع الله. لقد كان الله يتمشّى "ويتنزّه في الجنّة عند نسيم النهار" (تك ٣، ٨) وكان يكلّم آدم مباشرة، والأخير يكلّمه وجهاً لوجه. الأمر الذي يعدنا به بولس الرسول في الحياة الآتية. ثم ثانياً، سلطة الإنسان الكاملة على الكون وحالة السّلام مع كلّ مكوناته الماديّة والحيوانيّة. وثالثاً وأخيراً الإلفة والسّلام مع الإنسان الآخر. لم تدخل الخصومات والاتهامات والشعور بالآخر كطرف وملامته إلا بعد الخطيئة، فقبل السقوط يبدو الله في الكتاب المقدّس يكلّم آدم وحواء بلغة المفرد وكأنهما كيان واحد.

يبدو موضوع الفردوس للبعض أنّه ميثولوجية بشريّة. ويبدو لشريحة أخرى أكثر إيماناً أنّه موضوع للإيمان ولكن بشكل تأويلي. ومع ذلك فلنا، بعين الإيمان، تعني لنا قصّة الفردوس حقيقة، حقائق روحيّة عميقة. تجيب هذه الحقائق على تلك الأسئلة الأولى.

أليست هذه هي الأحلام الدينيّة لكلّ الناس؟ أن تكون العلاقة بين الإنسان والله، الإنسان وأخيه الإنسان، والإنسان والطبيعة، هي علاقة مثاليّة، أو بكلمة أخرى سلاميّة؟ أليست السعادة المطلقة هي التي تتحقّق من هذه الشروط الثلاثة، أو التي تحقّق هذه الآمال الثلاثة؟

الفردوس ليس حالة معينة "مروحنة" للإنسان أو طوباويّة، لا يعمل فيها ولا يتعب... أو إنّها تؤّمن له كلّ الطيّبات من الدنيا التي تنقصه هنا أو يشتهي منها الأكثر! لقد كان الإنسان يعمل في الفردوس، ووضعه الله فيه "ليحرثه" مسؤولاً عنه. لكن أهمّ ما يميّز الحياة الفردوسيّة عن حياتنا الحاليّة، التي ما بعد الخطيئة، هو أن الحياة هناك كانت مع الله، الأمر الذي حقّق الإلفة مع الآخر ومع العالم.

وعندما اضطربت هذه العلاقة مع الله، واختبأ آدم من وجه الله بسبب الخطيئة، عندها فقد بشكل طبيعي وفوري هذه الميزة، ليس بالكليّة، وإنّما لم تعد هي الحالة الطبيعيّة للحياة، بل تلك الحالة التي يشتاق للعودة إليها؛ تتحقّق حيناً وتفشل حيناً!

كانت خطيئة الإنسان في الفردوس، في جوهرها، التعاملَ مع العالم دون الصلة بالله، لقد تناول العالم ليس كهديّة من الله إنّما كملكية له وكمادة لإشباع حاجاته ورغباته وأحلامه. وهنا انقطع الإنسان عن الله من استخدامه للعالم بدل أن يرفع الشكر بواسطته! الخطيئة الجدّية، التي نكررها نحن دوماً هي، أنّ الإنسان نصّب ذاته محوراً لنفسه، يتناول العالم ليمجّد ذاته وليس ليشكر الله. لذلك صار القريب منافساً وليس أخاً. وبعده لم يعد الأخ الأكبر مسؤولاً عن أخيه الأصغر. لأن العالم والآخر تبدّلا في عينيه. لم يعد الإنسان يطلب فيهما ومن خلالهما علاقة مع الله، وإنّما فقط غايةً لذاته. وأي سلام سيكون في هكذا نظرة؟ لم يعد الآخر والعالم صلةً للتواصل مع الله، إنّما موضوعَ إشباع للذات. وهكذا صار هذان طرفَين في صراع بدل أن يكونا رابطاً للحياة. يتصارع الإنسان مع الآخر لأنّه فقد تعريفَ حياته! يتصارع الإنسان مع الكون لأنّه يريد أن يستهلكه لذاته! وهذه الصراعات هي "الحياة اللاّفردوسيّة"!

إنّنا نطرد ذواتنا من الفردوس حين نمحور كلّ عناصر الحياة حول ذواتنا، حين لا نحبّ من الدنيا إلاّ ما نراه لذاتنا حين نتعاطى مع الدنيا لإشباع ذواتنا لا يمكننا أن نكون مسالمين مع الآخر والكون! إنّ

هذا لمستحيل هكذا! لأننا نكون قد بنينا علاقتنا مع العالم والله على أساس الذات والأنانيّة وليس على أساس "العلاقة" الإلهيّة الفردوسيّة، والتي هي المحبّة والشكر.

هذا هو الفردوس، وهكذا طردنا منه، والسؤال الآن هو كيف نعود إليه؟ نعــود إلى الفــردوس بالصوم. الصوم يعني أن نتناول العالم ولكن بعفّة، حين نتناوله لرفع حاجاتنا ثمّ لشكر الله الذي وهبــه لنا، وليس عندما نريده لأكثر من ذلك، أي لرغباتنا. العالم هو هديّة الله لكي يحررنا من عبودية الحاجة، لكنّنا أحياناً نتناوله في غير هذا الإطار المقدّس، نأخذه لنستعيض به عن الله، ونمتّع رغباتٍ لنا لا تنمّــي فينا محبّة الله، وإنّما على العكس تقتل كلّ بعد روحيّ للإنسان. يأتي الصوم هنــا ليعيــد الاســتخدام الحقيقيّ للمادة. أي في الصوم، نلبّي حاجات الجسد دون الخضوع لرغباته. فالشبع حاجة، لكن النهم والشراهة رغبة. الشبع يجعلنا نشكر الله، لكن الشراهة تقصيه عنا! حين نتناول العالم بهذه العفّة نــبرهن لله أمرين، الأوّل أنّنا شاكرون والثاني أنّ موضوع وحقيقة رغباتنا وشهواتنا ليست في العالم الذي أهداه لنا، وإنّما في الذي أهداه، أي فيه. في الصوم نعود وندرّب أشواقنا لتتجه إلى "الواحد الــذي الحاجــة إليه". يصالحنا الصوم إذن مع الله ويضعنا في درب "عودة" إليه أي التوبــة. بالصــوم إذن نعــود إلى الفردوس.

ولما كانت الحياة الفردوسيّة ليست علاقة فرديّة مع الله، وإنّما علاقة حيّة هرمونيّة مع القريــب، لذلك رتّبت الكنيسة اليوم، على عتبة الصوم أن نبدأ الصيام بتصحيح العلاقة أيضاً مع القريب.

إنّ أساس العلاقة مع القريب هي المحبّة. لكن من يملك المحبّة الكاملة التي لا تخطئ؟ إنّه الله وحده الذي بلا خطيئة. لذلك تفترض العلاقة مع القريب أوّلاً قبول الأخطاء! وهذا يعني تماماً أنّ العلاقة مــع القريب تدوم بالمسامحة والغفران. فإذا ما أردنا أن نعود إلى الحياة الفردوسيّة، علينا تصحيح علاقتنا أيضاً بالآخر، لهذا نبدأ بالغفران.

لهذا إنجيل اليوم يتكلّم تماماً عن ذلك، فيوصنا أن نعتبر الله كنــزنا، وأن نصوم بتناول العالم بعفّة وأن نغفر للناس زلاتهم. أي أن يكون الله هو شوقنا الحقيقيّ، وأن نأخذ هديته بالشكر والعفّــة، وأن نصالح قريبنا فنتسالم مع الله والعالم والقريب، ونعود باتّجاه الفردوس المفقود ونحقّق هذا العالم المنشود.

آميـــــن